

مناهاة الرؤيا ونشوة الحلول في

"أشجار القيامة لبشير مفتي"

منصور آمال

قيل في الكورس الأخير من "أديب"

"لا تسم أي إنسان سعيداً إلا بعد أن يموت"

تقديم:

في هدأة القبر و سكون الظلمة تتوحد الذات مع الغائب الحاضر، تتوحد لتدرك كنهها و تتجاوز المرئي، لتكتب نصاً يتخطى النسيان و يقهر المكبوت و المسكوت عنه. هكذا هي رواية "أشجار القيامة" لبشير مفتي^(*)، حيث تقوم على عبور الخطاب الصوفي و يصبح مادتها.

تبدأ الرواية في معابر الذاكرة، و شوارع الحي المتقوب بالآمال الضائعة، في زمن الثورة المغدورة و الفضاة، و انكسارات الجسد على سكك القطارات الموبوءة و الخيانات، أجل يبدأ الراوي من عودته في القبر، يقول: «حالما استيقظت وجدت العالم كثيفاً أمامي، صار مثل لوحة مجردة و عارية، مليئة بالدهشة و الأغاز، صار لغة أخرى، بحرا يتماوج، و سماء تهدد بالعاصفة، كنت قد نمت طويلاً، و فكرت في أنّ عودتي ستكون متعبة، و لكن جديرة بأن تكون»⁽¹⁾.

يتراجع الزمن إلى الوراء، و تعود الذكرى إلى غرفة الإنعاش ثم إلى "حي الثقب" حيث الذكريات الباهتة و الآمال الممزقة، كانوا جماعة من الأصدقاء "البطل الراوي، زهرة، ساعد، مختار عيد" الذين جمعتهم الأقدار في حزب يساري يحلم بالتغيير و يخطط للثورة.

كانوا جميعاً أشبه بأشجار القيامة التي حكم عليها بالاحتراق دوماً و أبداً دون سابق ذنب، حتى "كريمة" الفتاة البسيطة الفقيرة الساذجة التي أحببت البطل الراوي حتى الموت،

كذلك "زهرة" المرأة الحاملة التي ضحّت بالحياة الأرسقراطية من أجل "ساعد"، و الذي ينتهي في السجن، جميعهم كانوا ضحايا الثورة، الثورة التي خانت شعبها.

تطرح رواية "أشجار القيامة" تجربة جديدة؛ تجربة البعث من القبر، فتختلط نبيرة المأساة و واقع الحياة المرير مع نبيرة الروح الصاعدة إلى السماء، حيث تتوحد الذات مع اللامتاهي.

يستعين "بشير مفتي" في تجربته السردية هذه باللغة الصوفية، لتستوعب ومضات الشدة لدى الرائي، لتصبح لغة تبصر و كشف و إضاءة.

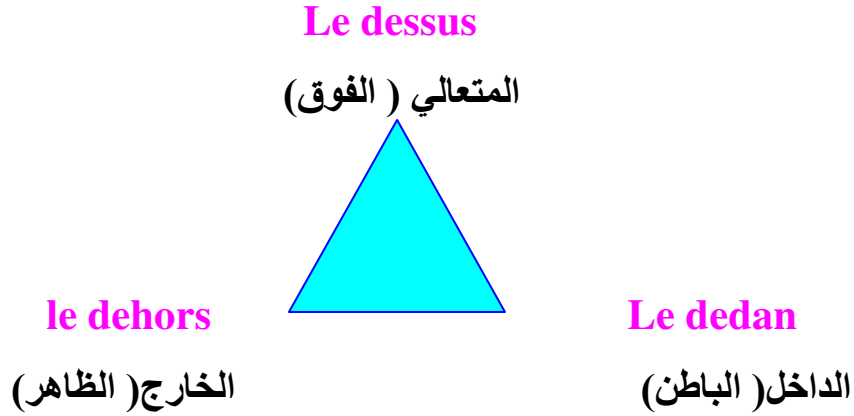
رغم أن انفتح النص الروائي على عالم المتصوفة جاء متأخرا في المشهد السردى العربى و الجزائرى تحديدا و من شأنه أن ينيّر السبيل أمام الممارسات الأدبية للوصول إلى تخوم جديدة، إلا أن هذا الانفتاح ما زال يطرح مجموعة من الملاحظات أهمها: هل استعانة الروائي بالصوفية هدفه توليد الشعري؟ أم أن ظهور هذه التجربة ظهور عابر الغاية منه هو تكثيف اللغة و نقل القارئ إلى بوابة التأويل؟ أو هي ممارسة فعلية فردية خاصة بمبدع دون آخر؟ وماذا يمكن لهذه التجربة أن تقدم للمنجز السردى الجزائرى؟

1- سياج أولي: أونطولوجيا الكتابة:

يحاول المبدع- بفضل حساسيته المفرطة- أن يواجه الواقع و يتخطاه، من حيث كونه ضربا من السخف و التدني، ثم يصبح على قناعة جارفة بأنّ الذات بإمكانها التّسامي، يقينا منه أن «التعالى هو في جوهره انفتاح للفكر و اتساع لآفاقه، و تجاوز لكل الحدود، فعلى الرغم من محدودية الكائن، إلا أن يملك شعورا باللاتناهي و اللامحدودية»⁽²⁾.

لذلك تصبح الكتابة في نظر الذات هي الملاذ الأوّل و الأخير، لتتوحد معها، فالراوي في "أشجار القيامة" تبقى "قاء" تطارده أو يطاردها، إنها حرف يتلون بألف لون، يقول: «لم يكن هناك إلا الطبيب جعفر" هكذا سمعتم ينادون عليه" و الممرضة فاتن" هكذا سمعتم أيضا ينادون عليها" عمرها ثمانية و عشرون سنة" هكذا قالت لي" ذكرتني بقاء الجميلة، المرأة التي أحببتها في الحلم، و الرؤيا، و شطحات الخيال، المرأة التي أستطيع تأكيد وجودها»⁽³⁾.

إذن يلتقي الثلاثة العاشق/المتصوّف/المبدع في الذروة الواحدة فهم متشابهون في صفائهم، جميعهم يؤمنون بالفناء و التوحّد و الحلول، فهم رهائن الثالث:



يقول الحلاج: « من هذب نفسه في الطاعة، و صبر على اللذات و الشهوات، ارتقى إلى مقام المقرّبين، ثمّ لا يزال يصفو عن البشرية، فإذا لم يبق من البشرية حظ، حلّ فيه روح الإله الذي حلّ في عيسى بن مريم، و لم يرد حينئذ شيئاً إلاّ كان، كما كان، و كان جميع فعله فعل الله »⁽⁴⁾.

يضعنا "بشير مفتي" إزاء "فاء" بمواجهة التصور الأونطولوجي لدى المتصوفة فهي هنا تقوم مقام الوسيط « الذي يتكشف بالتجليات، التي تنهض على النسب و الاعتبارات و الإضافات و المراتب و المواطن، و تداخ، الباطن بالظاهر، ممّا يجعل السؤال الأونطولوجي مؤطرا ضمن علاقة الله بالعالم »⁽⁵⁾

فالمعرفة عند الصوفية تقوم على رصد هذا الوسيط، فهي تركز على الأسماء الإلهية و التجلي و الخيال و خطاب الحق⁽⁶⁾.

تتماهى "فاء" مع مفاهيم عديدة: المرأة/الكتابة/الثورة المجهضة/الحلم/الحرية، و تختفي الحواجز بين الكتابة الإنسانية و الكتابة الإلهية، يقول الراوي: « هل تراها الحلم الوحيد الذي كنت أعيش من أجله، هل هي المرأة الحلم؟ المرأة الكابوس؟ المرأة الكتابة، هل هي أنا البعيدة في، و العميقة بداخلي، نقطة الضوء التي لم تنهزم؟ أما دكنة الليل، براءة الروح التي لم تتلوّث، الداخل المغمور، و المنطوي على أسرار الحقيقة؟

هل هي كلّ هذا؟ أم أنا أهذي من تباريح الألم، من جراحات التعذيب، من فشل الثورة/الحلم/الحب/الحرية»⁽⁷⁾ .

إنّ "فاء" هي منبع الإلهام و مصدره، و أصل التمرد على النظام و الساكن، هي الكتابة بحق، هي لحظة التوحّد مع الوجود، عندها يسقط كل حجاب، تنكشف الرؤيا. يقول: « لا أملك كبرياء المحارب الذي لا يهزم حتّى آخر لحظة، كنت أتمسك فقط بخيط من نور، و بشعرة من ضوء فقط بوجهها هي، فاء اللّغز، فاء الحقيقة، فاء المجهولة، لم أكن أعرفها أنا أيضا؟ أين هي تلك المرأة التي يسألونني عنها، يعاقبونني بسببها، يكتمون أنفاسي من أجلها، أين هي فاء؟ أين تعرّفت عليها. كيف قادتني إلى هذا المصير؟ هذا الموت المقسط، هذا الألم الفظيع»⁽⁸⁾

2- عبور الخطاب الصوفي وتمثّلاته:

"أشجار القيامة" تجربة مفتوحة متعدّدة الأصوات، يأخذ فيها الروائي قارئه ملتبسا إلى خطابات متعددة، لكن الخطاب الصوفي يصبح الصوت الطاغي عليها، و تتكتم الذات عن البعد الديني لتتحول هي مركز الخطاب، و بما أنّ التصوّف هو « الملهم لما هو أفضل ما في الإنسان»⁽⁹⁾ حسب برتراند رسل، فإنّ الروائي يستعين بأهم آلياته:

2- 1- آية العبور والسفر:

لعلّ بلوغ المعرفة و إدراك حقائق الأمور لدى المتصوّف لا يحدث هكذا دون وسيلة أو طريقة، فالسفر هو سبيلهم إلى الله، و المسافر حسب -ابن عربي- هو « من سافر بفكره في طلب الآيات و الدلالات على وجود صانعه فلم يجد في سفره دليلا على ذلك سوى إمكانه، و معنى إمكانه هو أن ينسب إليه، و إلى جميع العالم الموجود فيقبله أو عدم فيقبله،(..) وفرّ إلى الله مسافرا من كل ما يبعده منه و يحجبه عنه إلى أن رآه في كل شيء»⁽¹⁰⁾

يقود البطل رحلة تقوّض الحدود، و تسعى للتجلّي و الكشف، يقول: «كنت أرغب في الرحيل، ليس الرحيل النهائي و لكن الرحيل الذي يتأتى في رمشة عين. الذي هو بداية لرحيل آخر، أعرف أنني أهذي. أن عيناي تصرخان و تتضرعان، و أنّ قلبي من فرط ما

هونت قواه صار يأمل في الغياب، الغياب الكلّي، المطلق، النسيان المدمر، حيث تفقد الذاكرة لوقت طويل سلطانها عليّ. لن أحرر إلا من خلال هذا الرحيل قلت ذلك، و ضحكت...»⁽¹¹⁾ .

فالسفر في الرواية أنواع مثلما هو متعدد عند مشايخ الصوفية، فهو قبل كل شيء «سير القلب في توجّهه إلى الحق»⁽¹²⁾ .

فالبطل ينشد سفرا تتأتى فيه الحقيقة، هو سفر يتخطى حدود المكان و الزمان و لا يرتبط بهما، حيث يأتيه العلم دون أن يبرح مكانه، يظل في رحيل دائم ليكشف الأشياء و العالم، يتصل بالذات العليا ليحقق اتصالا مختلفا عن الاتصال الروحي القائم على الوحي و النبوة، لذلك فهو «يكون جالسا تجيئه الأشياء أو يكون جالسا و تخاطبه الأشياء حيث كان»⁽¹³⁾

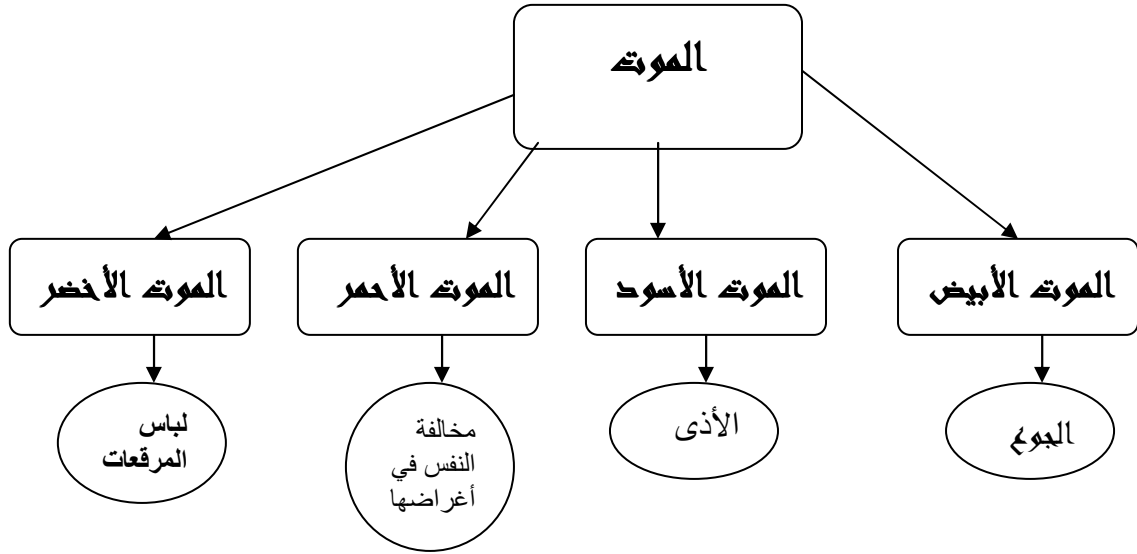
لكن فكرة الرحيل هذه تقوده إلى سفر آخر أطول يقول الراوي: «الحياة مثل الموت، الموت حياة أخرى تدفعك إلى مكان اسمه الحياة الثانية، أو الرابعة، أو الأخرى»⁽¹⁴⁾ .

و الموت هنا حياة من نوع آخر، لذلك فهو متعدد، و هو «مرادف لشهود الرقيق عند الصوفية»⁽¹⁵⁾ .

و لعلّ المتصوفة هم الطائفة الوحيدة التي نظرت إليه باشتياق و حنين و دغدغ وجدانها فترقبته فرحة و جلة، أليس إطلاقا من قيد الجسد و الأكوان و الاندراج في المطلق و الرحمان، أليس تتويجا لطريقهم إلى الحق؟ و كم هي مؤثرة تلك البساطة أمام الموت !إنه مجرد "نفس" يخرج من الرئتين و لا يدخل ثانية⁽¹⁶⁾.

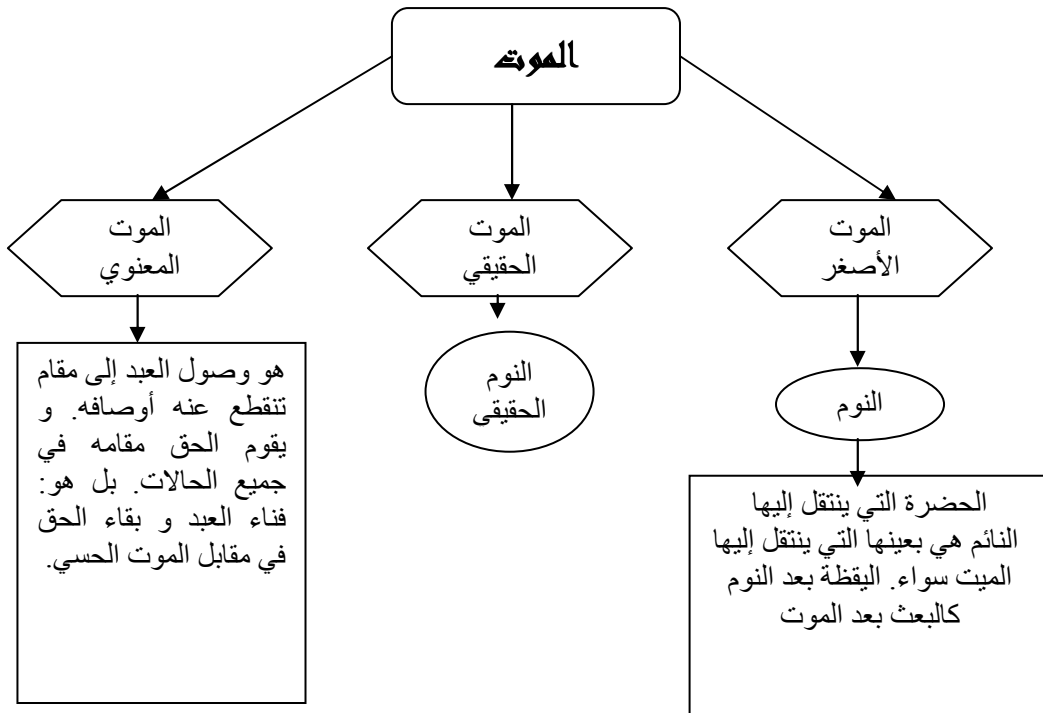
فالموت «حياة مطموسة»⁽¹⁷⁾ عند ابن عربي، فالحياة متعددة و الموت أيضا، فالحياة إحداهما حياة مبصرة و هي حياة التأليف، و الأخرى الحياة المطموسة، و هي حياة التفريق المسماة موتا⁽¹⁸⁾.

أمّا الموت هنا في العالم الروائي لبشير مفتي-مثلما هو عند المتصوفة- فهو أربعة أنواع (المخطط 01):



مخطط رقم: 01

لكن البطل في أشجار القيامة يعيش موتاً أصغر:



مخطط رقم: 02

هكذا تكتشف الذات أنّ الحياة و الموت و جهان حقيقة واحدة يقول: « في الموت شيء ما يشبه الحياة، فيهما شيء من بعض لقائهم يحدث في داخل الروح، أنا أشعر بهذا الآن، كأنهما معا في يزغردان من الفرح، يبكيان من الحزن »⁽¹⁹⁾.

2- 2- فتنة الخيال:

ينتقل مفهوم "الخيال" من نسيجه النقدي إلى مجال أرحب على يد المتصوفة، فهو عالم استثنائي و مختلف، إنه فرار من الوجود إلى وجود آخر، إنه هرب من حياة إلى حياة أخرى، يقول الراوي:

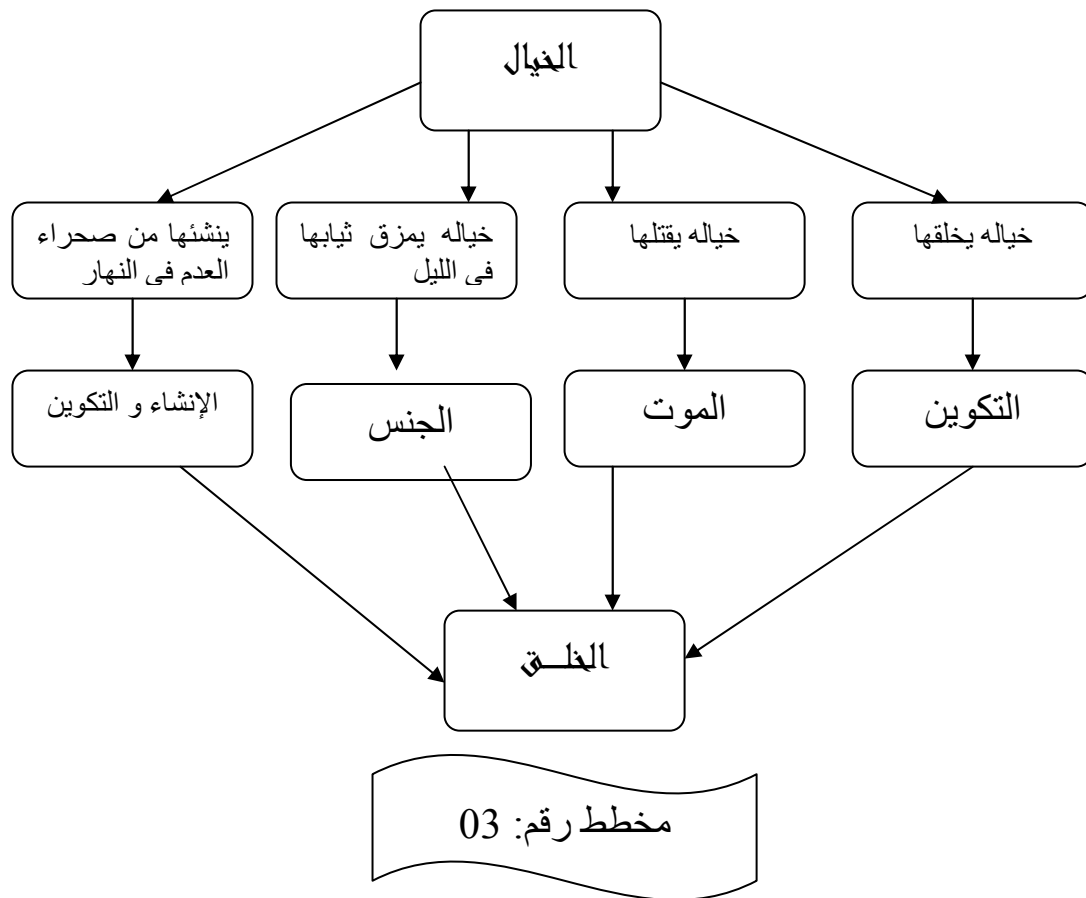
خياله يخلقها، و خياله يقتلها

خياله يمزق ثيابها في الليل، و ينشئها من صحراء العدم في النهار

خياله يوحد فاء بالصورة الأقرب إلى خياله

الصورة خالية؟ و خيالية، و مختارة⁽²⁰⁾

فالخيال يتوحد مع تيمة الخلق:



لكن الخيال عند "بشير مفتي" برزخ أعظم مثلما هو عند المتصوفة تماما، إنه عالم آخر بين العالمين، فالبرزخ هو «الحاجز بين الشئيين، و البرزخ ما بين الدنيا و الآخرة، من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل البرزخ... برازخ الأعيان: ما بين أوله و آخره، أو ما بين الشك و اليقين»⁽²¹⁾ .

يقول الراوي: «توقفت عن الحركة، مثل الزمن تماما، و شاهدت كل شيء: العمر و الأحلام، بينما برزخ لا يلتقيان»⁽²²⁾ .

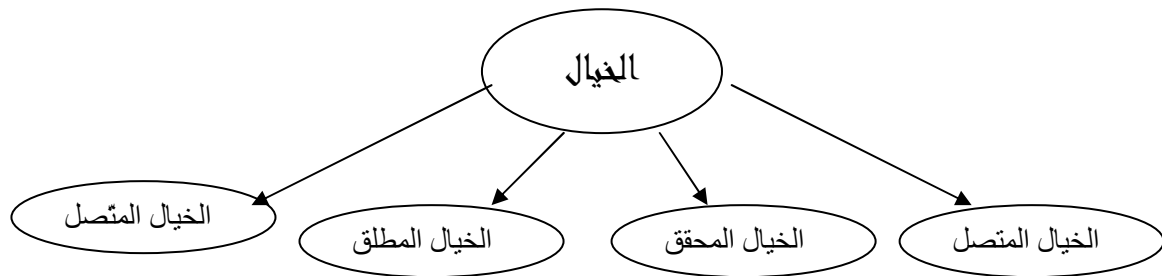
فالبرزخ في القرآن الكريم "الحاجز بين الشئيين أولا: لقوله تعالى «مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان»⁽²³⁾ ، و هو أيضا "فاصل بين الدنيا و الآخرة لقوله تعالى «و من ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون»⁽²⁴⁾ .

لكن البرزخ عند شيخ الصوفية لفظ إذا استعمل غير معرف، يقصد به حقيقة أو مرتبة لها عدة صفات، و هي مرتبة الجامع الفاصل بين عالمين أو حالين أو مرتبتين أو صفتين، هما في الواقع متناقضان⁽²⁵⁾ .

و الواضح أنّ "بشير مفتي" و "ابن عربي" سيّان؛ فقد استفادا من صفة البرزخ اللغوية و أضافا له الصفة الجامعة الإيحائية التي ينفرد بها.

فالإنسان في الجوّ الصوفي برزخ بين العالم و الحق، و جامع الخلق و الحق، و هو الخط الفاصل بين الحضرة الإلهية و الكونية، كالخط الفاصل بين الظل و الشمس⁽²⁶⁾ .

إذن فالخيال يتشكل في رواية بشير مفتي وفقا للمخطط رقم 04.



مخطط رقم: 04

خاتمة: (وجهة نظر)

هكذا يستمد الراوي و الروائي معا قوتها من قوة أخرى أكبر، تمنحهما هذه القوة القدرة على البقاء و التجلي، بما أن التجلي أساس المعرفة. لكن التجربة الصوفية عند الروائي "بشير مفتي" تبدو صوفية فردية؛ فهي تجربة مشغولة بالمحنة الوجودية لصاحبها، إذ يبدو حس الغربة و العزلة و الانطواء على الذات جليا، و هذا انطلاقا من الإحساس بواقع الحياة القاسي، لذلك بدا أبطال بشير مفتي أحاديون، رغم أنهم منخرطون في تيار واحد مشترك. تبقى إذن كتابات مفتي بحاجة لكثير من الأقلام الناقدة للكشف عن عوالمها المجهولة.

الهوامش

(*) بشير مفتي: من مواليد 1969/10/26 بالجزائر "صحفي"، من مؤلفاته: أمطار الليل "قصص"، الظل و الغياب "قصص"، المراسيم و الجنائز، أرخبيل الذباب، شاهد العتمة "روايات"، رئيس فرع رابطة إبداع بالجزائر العاصمة (1992)، أمين عام رابطة كتاب الاختلاف 2002.

(1) بشير مفتي، أشجار القيامة، منشورات الاختلاف/الدار العربية للعلوم، الجزائر/بيروت، ط1، 2005، الصفحة: 7.

(2) د/ عبد القادر فيدوح، الرؤيا و التأويل، مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، ط1، 1994، الصفحة: 60.

(3) بشير مفتي، أشجار القيامة، الصفحة: 20.

- (4) نقلا عن: سارة بنت عبد المحسن بن عبد الله بن جلوي آل سعود، نظرية الاتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام، دار المنارة للنشر و التوزيع، جدة/السعودية، ط1، 1991، الصفحة: 26، 27.
- (5) خالد بلقاسم، الكتابة و التصوف عند ابن عربي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2004، الصفحة: 35.
- (6) ينظر: المرجع نفسه، الصفحة: 35.
- (7) بشير مفتي، أشجار القيامة، الصفحة: 25.
- (8) المصدر نفسه، الصفحة: 24، 25.
- (9) نقلا عن: ولتر ستيس، التصوّف و الفلسفة، إمام عبد الفتاح إمام، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1999، الصفحة: 27.
- (10) ابن عربي (638 هـ-)، الفتوحات المكية، المجلد الرابع، أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999، الصفحة: 18.
- (11) بشير مفتي، أشجار القيامة، الصفحة: 18، 19.
- (12) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي "الحكمة في حدود الكلمة"، ندرة للطباعة و النشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1981، الصفحة: 581.
- (13) خالد بلقاسم، أدونيس و الخطاب الصوفي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 2000، الصفحة: 165.
- (14) بشير مفتي، أشجار القيامة، الصفحة: 9.
- (15) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، الصفحة: 1028.
- (16) المرجع نفسه، الصفحة: 1028.
- (17) المرجع نفسه، الصفحة: 1029.
- (18) المرجع نفسه، الصفحة: 1029.
- (19) بشير مفتي، أشجار القيامة، الصفحة: 13.
- (20) المصدر نفسه، الصفحة: 26.
- (21) نقلا عن: سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، الصفحة: 191، 192.
- (22) بشير مفتي، أشجار القيامة، الصفحة: 1.

- (23) الرحمان، الآية: 20/19.
- (24) المؤمنون، الآية: 100.
- (25) سعاد الحكيم، المعجم الصوفي، الصفحة: 193.
- (26) المرجع نفسه، الصفحة: 194.